حوار.

بقلم: احمد طلعت

ثمن الحرية.. فى موسكو..!!

ان ماجرى ويجرى الان فى روسيا يؤكد الحقيقة القائلة بأن الحرية لها «ثمن» يجب ان تدفعه الشعوب من دمائها وتضحياتها فليس هناك حاكم يقدم لشعبه الحرية على طبق من فضة طائعا مختارا وقد عبر الشاعر احمد شوقى عن هذا المعنى تعبيرا رائعا عندما قال «وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق».

والذى حدث فى روسيا - عند سقوط الشيوعية - ان القيادة الجديدة لم «تتنبه» الى ان تطهير اجهزة الدولة من اعوان النظام القديم هو شرط اساسى لاستقرار السلطة واستكمال مسيرة الاصلاح او ربما تصور الرئيس يلتسن ان تاييد الجماهير له كان يحمل فى طياته «تلقائيا» سقوط الحرس القديم من المنتفعين بالنظام الشمولى السابق والمعارضين للاصلاح.

لكن الايام اثبتت ان الذين «تمتعوا» بمغانم» السلطة فى ظل الانظمة الشمولية لايمكن ان يستسلموا «بسهولة» امام التغيير او يقبلوا طائعين بزوال السلطة والسلطان بل انهم - هم انفسهم - الذين يزايدون على الديمقراطية ويتباكون على الحريات ويطالبون بحقوق الانسان مع ان هذه الشعارات جميعا كانت فى عهدهم من المحرمات التى لايمكن لمواطن ان ينطق بها والا اعتبروه من اعداء الشعب ودعاة الثورة المضادة وعملاء الامبريالية وتعرض بسببها لاشد انواع النقمة واقسى الوان العقاب.

ولابد للتاريخ ان يذكر ان نور السادات قد «تنبه» فى بداية حكمه الى المخاطر التى يمكن ان تواجهها عملية الانتقال من الحكم الشمولى الى نظام التعددية والتحول من الاشتراكية الى الاقتصاد الحر والانتقال من نظام «زوار الفجر» الى دولة سيادة القانون فكانت «تمثيلية» ١٥ مايو هى الوسيلة للتخلص من اعوان النظام القديم - دفعة واحدة - ليمضى فى طريقه آمنا من مؤامرات الحرس القديم وفى نفس الوقت ليجنب الشعب اخطار المواجهة التى يتعرض لها الشعب الروسى الان بين فلول الشيوعية المنهارة وانصار التغيير واعادة البناء من جديد فتم التغيير بغير مواجهات او اراقة دماء.

ويتصور «البعض» ان الشعب الروسى قد دفع ثمنا غاليا من دماء ابنائه فى المواجهة التى دارت مؤخرا بين الاطراف المتصارعة كما يقول «البعض» بأن يلتسين يسعى لفرض الدكتاتورية من جديد والانفراد بالسلطة تحت مظلة الجمهورية «الرئاسة» التى ينص عليها دستوره الجديد لكن الحقيقة ان الدماء التى اريقت فى المواجهة الاخيرة هى الضمان الاكيد ضد العودة الى فرض الدكتاتورية على الشعب الروسى تحت اى ستار وهى «الثمن» الذى دفعه الشعب من اجل الحرية فاصبحت الحرية لديه هذا الثمن الباهظ اغلى من ان يفرط فيها من جديد او يتنازل عنها مهما كانت التضحيات.

ومع ذلك فاننا واثقون من ان «البعض» فى دول العالم الثالث سوف يضرب المثل بما جرى فى روسيا ليبرر عدم قبوله باعطاء المزيد من الحرية وتضييق الخناق على الديمقراطية تحت شعار تجنيب الشعب مخاطر المواجهات والمصادمات وسقوط الضحايا واراقة الدماء لكن الحقيقة هى ان دماء «عشرات» الضحايا الذين سقطوا فى روسيا خلال المواجهة من اجل حرية «الملايين» من ابناء الشعب الروسى هى ابسط «مقابل» يمكن ان يدفعه شعب عظيم مثل الشعب الروسى من اجل الحرية. والكرامة.. والمستقبل.

وفلول الشيوعية المنهارة فى روسيا لم تحارب من اجل الدستور كما تدعى او احترام احكامه بعد ان حل الرئيس يلتسين «برلمان الحزب الواحد» وانما هى تحارب من اجل الحفاظ على مابقى من امتيازاتها وما نهبته من اموال الشعب باسم «الاشتراكية» والعدالة الاجتماعية.

ان ماجرى فى روسيا هو فى حقيقته صراع بين انصار الحرية واعدائها مهما كان عدد الضحايا ومهما تنوعت الشعارات وكان من الطبيعى ان يدفع الشعب الروسى «ثمن» الحرية بعد ان ادرك جيدا ان للحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق !!